﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ٢٠﴾ [هود: 20]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لا ملجأ من الله إلّا إليه، ولا مَحيصَ منَ العرْضِ عليه

لَمَّا هدّدَ ربُّ العزّة سُبحانه المُكذّبين بأمورِ الآخرةِ؛ بيّنَ أنَّه سبحانه القادرُ على تعجيلِ العذابِ لهم في الدّنيا دونَ أنْ يجدُوا النّصيرَ أو مَن يَدفعُ عنهمُ العذابَ؛ فهو الذي أحاطتْ قُدرتُه بكلّ المُمكناتِ؛ ولَكِنّه ﷻ أخّرَ ذلك لحكمةٍ تَقْتَضِيهِ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُعْجِزِينَ﴾: العجْزُ: الضَّعْفُ، وهو نقيضُ الحزْمِ[2].

وأصلُه في المعنى يدورُ حول رخاوةٍ في الشَّيءِ، ومن هذا الأصلِ يكونُ الضَّعفُ[3]، والتَّعْجيزُ: التَّثْبيطُ، وكذلك نسبةُ الشَّخصِ أوِ الشَّيءِ إلى العَجْز. وأعجزني فلانٌ إذا عجزتُ عن طلبِه وإدراكِه، والإعجازُ: الفوتُ والسَّبقُ. ومنه قولُ اللّه ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾. أي: لم يكونوا فائِتين من عذابِ اللّه ولا سابِقين، ولا مُفلِتين أنفُسَهم من أخذِه لو أرادَ ذلك[4]، و"المعنى: أنّهم لا يُعجِزون اللّه إذا أرادَهم بالعذاب والانتقامِ منهم، بل هم في

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/331، والبقاعي، نظم الدّرر: 9/257، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 4/197، والآلوسي، روح المعاني: 6/232، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/34.

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، وابن منظور، لسان العرب: (عجز).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عجز).

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/19، والبغوي، معالم التنزيل: 2/444، والآلوسي، روح المعاني: 6/232.

قبضتِه وملكِه، لا يَقدرون على الامتناعِ منه إذا طلبَهم"[1]، "والمُعجِزُ هنا: الذي أفلتَ ممَّن يرومُ إضرارَه"[2].

2) ﴿أَوْلِيَآءَ﴾: الوَليُّ: النَّصيرُ، وهو ضدُّ العدوِّ، والوِلايةُ: النُّصرةُ[3]. وأصلُه يدورُ حول معنى القُربِ[4]. وكذلك الوَليُّ: الصَّديقُ والمحبُّ التَّابعُ، وهو ضدُّ العدوِّ أيضًا[5] وجمعُ الوَليِّ: أولياء. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾. أي: ما لهم من أنصارٍ وأعوانٍ يحفظونَهم من عذابِ اللّه وعقابِه إذا أرادَ بهم ذلك[6].

3) ﴿يُضَٰعَفُ﴾: الضِّعْفُ: ضِعْف الشَّيء مِثلَاه[7]، "وأضعفتُ الشَّيءَ إضعافًا، وضَاعَفْتُه مُضَاعَفةً، وضَعَّفْتُه تَضْعِيفًا، وهو إذا زاد على أصلِه فجعلَه مثْلَين أو أكثرَ"[8]، فهو عند العرب: المِثْلُ إلى ما زاد، وليس مقصورًا على المِثلَين. وضِعْفُ الشَّيء: مِثلُه، وضِعْفَاه: مِثلَاه، وأضْعافُه: أمْثَالُه[9]. وأصلُ معناه: هو أن يُزاد الشَّيءُ مثلَه[10].

المَعْنى الإجْماليُّ:

هؤلاء الَّذين وصَفهمُ اللّه تعالى منَ المشركين بالصَّدِّ عن سبيلِه لم يكونوا سابِقين ولا فائِتين من عذاب اللّه وبطْشِه في الدُّنيا ولا في الآخرةِ؛ لأنَّهم في قبضتِه وتحت قهْرِه وسُلطانِه، وهو قادرٌ على

لا نجاةَ ولا نصيرَ لمن أصمَّ عنِ الحقِّ سمعَه وأعمى بصرَه

(1) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 2/479.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/35.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ولي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ولي).
(6) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/19، والبغوي، معالم التنزيل: 2/444، والخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 2/479.
(7) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ضعف).
(8) الخليل، العين، وابن فارس، المجمل: (ضعف).
(9) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (ضعف).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضعف).

الانتقام منهم في أيِّ وقتٍ شاءَ، ولن يكونَ لهم من دونِه سُبحانه أعوانٌ وأنصارٌ يحفظونَهم ويَدفعون عنهم هذا العذابَ إذا نزلَ بهم، وسَيُزادُ لهم العذابُ والانتقامُ؛ لعلَّةٍ هي صمَمُهم عن سماع القرآنِ، وعدمُ إبصارِهم آياتِ اللّه في الكون[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الاستئنافِ في: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ﴾:

قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عنِ الاقتصارِ في تهديدِهم على وَصْفِ بعضِ عقابِهم في الآخرةِ؛ فإنَّ ذلك يثيرُ في نفس السَّامعِ أن يسألَ: هل هم سالمون من عذاب الدُّنيا؟ فأجيبَ بأنَّهم لم يكونوا مُعجِزين في الدُّنيا؛ أي: لا يَخرجون عن مقدرةِ اللّه تعالى على تعذيبِهم في الدُّنيا إذا اقتضت حكمتُه سُبحانَه تعجيلَ عذابِهم[2].

اللـه عـزيـزٌ حكيمٌ، يُمهلُ ولا يُهملُ

بَلاغة تَكرار التَّعبيرِ باسم الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

إعادةُ الإشارةِ إلى المذكورين بقولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ بعد أن أُشيرَ إليهم بقولِه سُبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ [هود: 18] لتقريرِ فائدةِ اسْمِ الإشارةِ السَّابقِ، وهي: التَّنبيهُ على أنَّهم حريُّونَ بما سَيردُ بعد اسمِ الإشارةِ منَ الخبرِ بسببِ ما قبْلَ اسمِ الإشارة منَ الوصْفِ، ولِما يُؤذِنُ به اسمُ الإشارة من معنى تعليلِ ما قبلَه فيما بعدَه[3]. فالإشارةُ إلى الموصوفين بصفاتٍ تدلُّ على أنَّ هذه الصِّفاتِ سببٌ لِما يقومون به من تحدٍّ للّه تعالى؛ ولذا قال سُبحانه: ﴿لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[4]، والمعنى: أنَّهم يَصيرون إلى حُكم

المشركون استحقُّوا عذابَ اللـه في الدُّنيا قبلَ الآخرةِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/370، والبغوي، معالم التنزيل: 4/169، ومجمّع الملك فهد، التفسير الميسّر: 1/224.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/38.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/33.

(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3692.

ربِّهم في الآخرة، ولم يكونوا مُعجِزيه أن يعذِّبَهم في الدُّنيا متى شاء تعذيبَهم، ولكنَّه تعالى أرادَ إمهالَهم[1].

دَلالةُ التَّعبيرِ بلامِ البُعدِ في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

الكافرون مُبعَدون عن رحمةِ الله

عُبِّرَ عنِ الكافرين الظَّالمين الذين يَصدُّون عن سبيلِ الله، ويَبغونَها عِوجًا باسْمِ الإشارةِ المُشارِ به إلى البعيدِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ للدِّلالةِ على بُعدِهم عن كلِّ خيرٍ وكلِّ فضيلةٍ، فمعنى "﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ أي: البُعَداءُ عن حضرةِ الرَّحمةِ"[2]، البُعَداءُ في درجة الكفرِ والإشراكِ، المُتميِّزون مِنْ غيرِهم منَ الخلْقِ[3].

وفي هذا إشارةٌ لطيفةٌ إلى أنَّهم كما حالوا بين النَّاسِ وسبيل الإيمانِ فأبْعَدوهم عن أنوارِ الوحيِ الإلهيِّ، أُبعِدُوا يومَ القيامة، ونُبِذوا نبْذَ ما لا يُعتَدُّ به، وهذه غايةُ الإهانةِ!

دَلالةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿مُعْجِزِينَ﴾:

الظَّالمون عاجِزون عنِ الفرارِ من عقابِ الله

أُوثِرَ التَّعبيرُ بالاسمِ ﴿مُعْجِزِينَ﴾ دونَ الفعلِ (يُعجزون) للدِّلالةِ على الدَّيمومةِ التي لا ترتبطُ بزمنٍ دونَ زمنٍ، فقد نفَى عنهم بذلك أن يُعجِزوا اللهَ سُبحانه ألبتَّةَ، في الماضي وفي الحال وفي المستقبل، وهذا ضربٌ من ضروب التَّوكيدِ، فقد "نفَى عنهم صفةَ الإعجازِ أصلًا؛ أي: لن يُفلِتوا من عذاب الله وعقابِه. وجاء بالاسمِ الذي هو أثبتُ وآكدُ منَ الفعل"[4].

بَلاغةُ التَّعبيرِ بالمسنَدِ جملةً اسميَّةً:

عذابُ الكافرين في الدُّنيا لا مَهربَ منه

جاء المُسندُ في قول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ جملةً اسميَّةً مُصدَّرةً بالفعلِ النَّاقصِ مُسنَدًا إلى ضميرِ جمعِ الغائِبين المُشارِ إليهم. وقد حقَّق هذا غيرَ فائدةٍ بلاغيَّةٍ، حيث

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/35.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/257.
(3) حجازي، الواضح: 2/112.
(4) الهلال، الثري الجامع: 5/183.

أفادَ مجيءُ المُسندِ جملةً تقوِّيَ الحُكْمِ وتوكيدَه، وأفاد مجيئُه جملةً اسميَّة الثُّبوتَ؛ فإنَّ مِن شأن الجملةِ الاسميَّةِ أنْ تدلَّ على الثُّبوت[1]، وفي ذلك تأكيدٌ لوقوعِه وتهديدٌ لهم.

معنى اللَّامِ ودَلالتُها في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

اللَّامُ في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ لبيان الجنْسِ، فهي تصْدقُ على كلِّ ما تدلُّ عليه كلمةُ (أرض)، والمقصودُ من هذا التَّعريفِ الاستغراقُ، فإنَّهم لم يكونوا مُعجزين في أيِّ أرضٍ، وهذا الاستغراقُ يفيدُ تأكيدَ النَّفي"فهذا نفيٌ للملاجئِ والمعاقلِ التي يَستعصمُ فيها الهاربُ[2].

لا ملجأ للكافرين منَ الله؛ فالأرضُ جميعًا تحت سُلطانِه

نُكتةُ تخصيصِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ بالذِّكْرِ:

خصَّ النّظمُ الكريمُ الأرضَ بالذِّكرِ؛ لأنَّ تصرُّفَ ابنِ آدم وتمتُّعَه إنَّما هو فيها، وهي قُصاراهُ لا يستطيعُ النُّفوذَ منها[3]، وأشار إلى عجْزِهم بأنَّهم لا يَقدرون على بلوغ العالَمِ العُلويِّ بقوله: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

الكافرون تحت سُلطانِ الله؛ فالأرضُ كلُّها في قبْضتِه

معنى الحرفِ ﴿فِي﴾ ودلالتُه:

﴿فِي﴾ هنا في قولِه تعالى: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تفيدُ الظَّرفيّةَ المكانيَّةَ، وهي على أصلِ معناها، حيث جُعلتِ الأرضُ كالوعاءِ الجامعِ لِما فيه[4]، وأمَّا دلالتُه هنا فهي بيانُ مدَى ضعْفِ هؤلاء المُخاطَبين؛ إذ هم في الأرض لا يَستطيعون النُّفوذَ منها.

الكافرون في ملكِ اللهِ، والأرضُ وِعاؤُهم

تنوُّعُ إعراب جُملة ﴿لَمْ يَكُونُواْ﴾ ودَلالتُه:

قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في محلِّ رفعٍ مبتدأٌ، وجُملةُ ﴿لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ﴾ في محلِّ رفعٍ خبرُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، و﴿مُعْجِزِينَ﴾ خبرُ

لن يَذرأَ الكافرون عذابَ الله؛ فهو القاهرُ فوق عبادِه

(1) الصعيدي، بغية الإيضاح: 1/187.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/197، والآلوسي، روح المعاني: 6/232، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/35.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/160.

(4) السامرائي، معاني النحو: 3/57.

﴿يَكُونُواْ﴾[1]، ويجوزُ أن تكونَ جملةُ ﴿لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ﴾ حالًا، وجملةُ ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ خبرًا أوَّلَ[2]، فالآيةُ صيغتْ في قالبِ الجملةِ الاسميَّةِ، والتَّعبيرُ بالجملةِ الاسميَّةِ يفيدُ الثُّبوتَ، فهذا هو الحالُ الدَّائمُ الذي لن يتغيَّرَ، فاللّه تعالى قويٌّ عزيزٌ لا يُغالَبُ، وهم لن يَبلُغوا أن يَدّرؤوا عن أنفسِهم العذابَ.

دَلالةُ الحالِ في قولِه: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

لاخـــروجَ عـن قبْضةِ الله

قولُه تعالى: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ حالٌ منَ الضَّميرِ البارزِ المتَّصلِ في ﴿يَكُونُواْ﴾، ودَلالةُ هذه الحالِ بيانُ ملازمتِها لصاحبِها؛ أي: أنَّهم لا يَخرُجون عن قبضةِ اللّه سُبحانه على كلِّ حالٍ[3]، فأنَّى يُعجِزونه وقد ملكَهم وأحاطَ بهم؟!

دَلالةُ العطْفِ في ﴿وَمَا كَانَ﴾:

ما كان للكافرين مِـــن أنـــصـــارٍ يَمنعونَهم من عقابِ الله

قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ﴾ معطوفٌ على قولِه سُبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وقد حَسُن هذا العطفُ؛ لِما بين الجُملتين الكريمتين ممَّا يُسمّيه البلاغيُّون التوسُّطَ بين الكمالَيْن، إضافةً إلى أنَّ هذا العطفَ قد عدَّد مظاهرَ قُدرةِ اللّه عليهم مع التَّدليل على ضعْفِهم، فلمَّا نفَى التَّعذُّرَ بأنفسِهم، نفاه من جهة غيرِهم[4]، "فجمع لهم نفيَ سبَبَيِ النَّجاةِ مِن عذاب القادرِ، وهُما: المكانُ الذي لا يصلُ إليه القادرُ، أو معارضةُ قادرٍ آخرَ إيَّاه يمنعُه من تسليط عقابِه"[5].

دَلالةُ ﴿وَمَا﴾ في ﴿وَمَا كَانَ لَهُم﴾:

﴿وَمَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ﴾

(1) درويش، إعراب القرآن: 4/330، وبهجت صالح، الإعراب المفصل: 5/152.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/36.
(3) درويش، إعراب القرآن: 4/330.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/257.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/35.

هي نافيةٌ[1]، والمعنى: نفيُ الإعجازِ عنهم، ونفيُ وجودِ الأولياء لهم. "وقيل: (ما) بمعنى: الذي. تقديرُه: أولئك لم يكونوا مُعجِزين، لا هم ولا الذين كانوا لهم من أولياءَ مِن دون اللّه"[2]، فالأوَّل فيه نفيٌ لشيْئَين عن فريقٍ واحدٍ: أن يكونوا مُعجِزين، وأن يكونَ لهم أولياءُ. والثَّاني فيه نفيٌ لشيءٍ واحدٍ، وهو الإعجازُ ولكن عن فريقين: الكافرين وأوليائِهم.

عجزُ الكافرين وأنصارِهم عن دفعِ عذابِ الله

سرُّ التَّنوُّعِ بين ﴿لَمْ يَكُونُواْ﴾، و﴿وَمَا كَانَ﴾:

جاء النَّفيُ في الآية مُتنوِّعًا بين نفي المضارع في قولِه تعالى: ﴿لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، ونفي الماضي في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ ويرجعُ الفرقُ بينهما إلى دلالةِ كلِّ أداةٍ منهما على النَّفي في أصل الوضْعِ؛ فإنَّ (ما) النَّافيةَ هي حرفٌ لا عملَ له إذا دخل على الفعل، يَنفي الماضي والمضارعَ، أمّا (لم) فهو حرفُ نفيٍ وقلبٍ وجزمٍ، وتختصَّ بالدُّخول على المضارع، ويَقلبُه منَ الزَّمن الحاضرِ إلى الماضي ويَستغرقُ الماضيَ والمستقبلَ[3]، والملحوظُ أنَّ نفيَ المضارع - الذي قَلبت (لم) زمنَه إلى الماضي - جاء مع الإعجازِ، وذلك للدَّلالةِ على أنَّ حدَثَ الإعجازِ لم يَحصلْ في الماضي مع تطاوُلِ المدَّة واستمرارِها، وكثرةِ تقلُّبِ أحوالِ المخاطَبين، وهذا مبالغةٌ في تأكيد النَّفي[4]، وجاء نفيُ الماضي مسبوقًا بـ (ما) مع الأولياء، للدَّلالةِ على أنَّ هذا الأمرَ لم يقعْ ألبتَّةَ، وفي هذا تعريضٌ بهم، فإنَّ كلَّ مَن ظنُّوا أنَّه سيَنصرُهم مِن دون اللّه لم يكن لينصرَ نفسَه فضلًا عن أن ينصُرَهم[5].

نفيُ الإعجازِ والأولياءِ عنِ الكافرين في الماضي والمُستقبلِ

(1) درويش، إعراب القرآن: 4/330.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/19.
(3) السامرائي، معاني النحو: 4/193، 197.
(4) السامرائي، معاني النحو: 4/195.
(5) السامرائي، معاني النحو: 4/197.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُم﴾:

العنادُ عاقبَتُه تخصيصُهم بعذابٍ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿لَهُم﴾ للتَّخصيصِ والاهتمامِ، فهؤلاء الكافرون المُعانِدون الذين ظنُّوا أنَّهم دفَعوا عن أنفسِهم العذابَ باستنصارِهم بأندادِهم وأصنامِهم فعَلوا ذلك ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾، فهذا بيانٌ لِمدى جُحودِ القوم ومدَى تجرُّئِهم على ربِّهم ﷻ.

معنى اللَّام ودَلالتُها في ﴿لَهُم﴾:

ليس للكافرين أنصارٌ يَمنعونَهم من عذابِ الله

اللَّامُ في قولِه تعالى: ﴿لَهُم﴾ للاختصاصِ، ومعناها هنا أنَّهم: لا يَملِكون مَن ينصرُهم ويدافعُ عنهم بين يدي اللَّه تعالى، وليس معهم ما يَدفَعون به عن أنفسِهم العذابَ، أو يَفتدون به أنفسَهم منَ النَّار.

معنى ﴿مِّن﴾ ودَلالتُها:

اللهُ وحدَه هو الوليُّ النَّصيرُ

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هي (من) الجارَّةُ التي تُزادُ في الظُّروف غيرِ المتصرِّفةِ[1]. وقد دلَّت على نفْيِ إمكانِ الولايةِ يومَ القيامة عن كلِّ مَن هو دونَ اللَّه تعالى، فإنَّ اللَّه سُبحانه هو وحدَه الوليُّ والنَّصيرُ، فلمَّا كانت الرُّتبُ التي هي دونَ عظمتِه سُبحانه متكاثرةً جدًّا، بيَّن أنَّهم معزولون عن كلٍّ منها بإثبات الجارِّ فقال: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: الملكِ الأعظمِ[2].

معنى ﴿دُونِ﴾ ودَلالتُها:

اللهُ سُبحانه هو القاهرُ فوق عبادِه

قولُه تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بمعنى: من غيرِ اللَّه، فـ﴿دُونِ﴾ اسمٌ غيرُ ظرفٍ[3] وتدور معاني جذرِه حول القُربِ[4]، والخفضِ عنِ الشَّيء، والقصورِ عنِ الغاية، والخِسَّةِ والحقارةِ[5]، ففيه دَلالةٌ على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/36.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/257.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/36.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دون).
(5) الجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (دون).

عُلوِّ الله سبحانه على جميع خلْقِه، فهو سُبحانه العليُّ، وجميعُ خلْقِه دونَه، وفيه دَلالةٌ أيضًا على حقارةِ ما كان الكافرون يَستنصرون بهم، وما دامَ المُستنصَرُ به حقيرًا فإنَّ مَنِ استنصرَ به أذلُّ وأحقرُ!

سِرُّ التَّعبيرِ في قوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّـهِ﴾:

الله هو القهَّارُ الغالبُ على كلِّ شيءٍ

عُبِّرَ بلفْظِ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لِما في الألوهيَّةِ من مَعاني العُلوِّ والقهْرِ والغلَبةِ والغِنى والكمالِ المُطلَقِ والاستحقاقِ للعبوديَّة، ولِما يتضمَّنُه لفظُ ﴿دُونِ﴾ منَ السُّفولِ والانحطاطِ والخِسَّةِ، فهذه المقابلةُ الصَّارخةُ بين الدِّلالتَيْن ممَّا له أبلغُ الأثرِ في إيقاعِ المعاني في القلوبِ.

معنى ﴿مِّن﴾ ودَلالتُها:

ليس للكافرين أيُّ وَليٍّ يَنصرُهم من دونِ الله

﴿مِّن﴾ الجارَّةُ لـ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ لتأكيدِ استغراقِ الجنسِ المَنفيِّ؛ أي: ما كان لهم فردٌ من أفرادِ جنسِ الأولياء[1]، فهي المُسمَّاةُ بـ (مِن) الاستغراقيّةِ؛ فقد استغرقتِ النّفيَ المطلقَ، وعمَّمتْه، وأفادتِ التَّوكيدَ؛ أي: تأكيدَ نفيِ وجودِ الوليِّ[2]؛ أي: ما كان لهم أيُّ وليٍّ منَ الأولياء[3].

دَلالةُ التَّعبيرِ بالأولياء دونَ غيرِها:

الوليُّ هو القريبُ الـــذي يَـنـصـرُ ويُعينُ

تدورُ معاني الولايةِ حولَ القُربِ، والدّنوِّ، واللُّزومِ، والمتابعةِ، والرِّعايةِ بالقيامِ على المصالحِ[4]. وقد عُبِّرَ عنِ الحلفاءِ والأنصارِ والأعوانِ هنا بلفْظِ الأولياءِ لِما في الولايةِ من معاني المحبَّةِ والنُّصرةِ التي تلازمُ القُربَ غالبًا أو تنشأُ عنه، فنفَى اللهُ سُبحانه في الآيةِ وجودَ أولياءَ يَنصرون الكافرين، وأغرقَ في النَّفيِ بقوله: ﴿مِنْ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/36، والآلوسي: روح المعاني: 6/232.
(2) الهلال، الثري الجامع: 5/184.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3692.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ولي).

﴿أَوْلِيَآءَ﴾؛ أي: يفعلون معهم ما يفعلُ القريبُ من تَولّي المصالحِ، والحمايةِ مِن المصائبِ، ومَن لم يقدرْ على الامتناعِ وهو حيٌّ لم يمتنعْ بعد موتِه[1]، ويجوزُ أن يُرادَ بالأولياءِ الأصنامُ التي تولَّوْها؛ أي: أخلَصوا لها المحبَّةَ والعبادةَ، ومعنى نفْيِ الأولياءِ عنهم بهذا المعنى نفْيُ أثرِ هذا الوصْفِ؛ أي: لم تنفعْهُم أصنامُهم وآلهتُهم[2].

نُكتةُ الجمْعِ في ﴿أَوْلِيَآءَ﴾:

لا يُغني الأولياءُ من دونِ اللهِ مهما كثُروا وتنوَّعوا

جاء لفظُ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ بصيغة الجمع، وذلك إمَّا باعتبار أفرادِ الكفرةِ، فكأنَّه قيل: وما كان لأحدٍ منهم مِن وليٍّ، وإمَّا باعتبار تعدُّد ما كانوا يَدْعون من دونِ اللّه تعالى، فيكونُ ذلك بيانًا لحالِ آلهتِهم مِن سقوطِها عن رُتبةِ الولايةِ[3].

بَلاغةُ الاستئنافِ في ﴿يُضَٰعَفُ﴾ ودَلالتُه:

عذابُ الكافرين مُضاعَفٌ؛ لأنّهم صَدّوا عن سبيلِ الله

قولُه تعالى: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن سؤالٍ مقدَّرٍ بعد قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾، فكأنَّه قيل: هؤلاء الذين لن يكونَ لهم يومَ القيامة مَن ينصرُهم أو يدفعُ عنهم: ماذا يُفعل بهم؟ فقيل: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾؛ أي: يُفعل فيه فعْلُ من يناظرُ آخَرَ في الزِّيادة[4]، فهي جملةٌ مستأنَفةٌ تتضمَّنُ حِكمةَ تأخيرِ المُؤاخذةِ، وتبيِّنُ ما يكونُ لهم ويَحلُّ بهم[5]، ولتأكيدِ أنَّ تأخيرَ العذابِ والتَّراخي عن تعجيلِه لهم ليكونَ عذابًا مُضاعَفًا بسبب صدِّهم عن سبيل اللّه وإنكارِهمُ البعثَ، بعدَ الموتِ[6].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/257.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/35 - 36.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/197، والآلوسي، روح المعاني: 6/232.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/257.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/197، والآلوسي، روح المعاني: 6/232.
(6) الشوكاني، فتح القدير: 2/557، والقنوجي، فتح البيان: 6/162.

دَلالةُ التَّعبيرِ بصيغة ﴿يُضَٰعَفُ﴾:

مَن يتولَّى تعذيبَ هؤلاء الكافرين هو الله ﷻ وحدَه

بُنِي الفعلُ ﴿يُضَٰعَفُ﴾ للمفعول فلم يُسمَّ فاعلُه للعلْم به، وهو الله ﷻ، فهذا أمرٌ لا يقدرُ عليه إلا الله، ولأنَّ المراد وجودُ المضاعفةِ مطلقًا[1]، فمقصودُ الآية إثباتُ مضاعفةِ العذاب تنكيلًا بالكافرين الذين ظنُّوا أنَّ تأخيرَ العذابِ عنهم بسببِ أنَّ أولياءَهم وأنصارَهم منَ الأوثان قد حمَوهم ودافَعوا عنهم، فالآية تردٌّ عليهم، وتُثبتُ وجودَ ما ادَّعَوا عدمَه!

نُكتةُ تقديم ﴿لَهُمُ﴾ على ﴿ٱلْعَذَابُ﴾:

الكافرون لهم عذابٌ يخصُّهم وحدَهم

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿لَهُمُ﴾ للدِّلالة على الاختصاص؛ أي أنَّ هذا العذابَ العظيمَ المُضاعَفَ إنَّما هو لهم هم، قد أُعِدَّ خصوصًا لهم؛ وذلك لعظَمِ جُرمِهم، فما كان الله ﷻ ليَظلمَ أحدًا ولو مثقالَ ذرَّةٍ.

تنوّعُ القراءاتِ في ﴿يُضَٰعَفُ﴾:

عذابُ الكفرةِ شديدٌ كثيرٌ، وهو مُستمرٌّ مُتوالٍ

قُرِئَ في المتواترِ بالتَّضعيف: (يُضعَّف لهم العذاب)، وبصيغة المفاعلة: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾، والفرقُ بينهما عائدٌ إلى الفرق بين صيغةِ (فاعَلَ)، وصيغة (فعَّل)، فأمَّا الأولى فتدلُّ على المشاركةِ بين شيئَين، وتدلُّ على المُوالاةِ والمتابعةِ، وأمَّا الثَّانية فتدلُّ على التَّكثير والتَّعديةِ والإزالةِ وغيرها[2]، وممَّا سبق يُلحظُ في المفاعلة معنى: الموالاةِ؛ أي: الاستمراريةِ وعدمِ الانقطاع. ويُلحظُ في التَّفعيل معنى: التَّكثير، وكلا المعنيَيْن مرادٌ هنا، فإنَّ عذابَ هؤلاء الكفرةِ الفجرةِ شديدٌ وكثيرٌ، وهو مع شدَّته مُستمرٌّ ومُتوالٍ، فمعنى المضاعفة: الشِّدَّةُ؛ لأنَّهم يُعذَّبون عذابَيْن: عذابًا على ضلالِهم في أنفسِهم، وعذابًا على إضلالِهم غيرَهم[3]، والعذابُ المضاعَفُ هو

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/257.
(2) الحملاوي، شذا العرف، ص: 31 - 32.
(3) الصاوي، حاشية على الجلالين: 2/211.

عذابُ الآخرة بقرينة قوله: ﴿لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ المُشْعِرِ بتأخيرِ العذابِ عنهم في الدُّنيا لا عن عجْزٍ[1].

نُكتةُ توجيهِ معنى ﴿يُضَٰعَفُ﴾:

سَيِّئاتُ أهلِ الكفرِ مُضاعفةٌ؛ لذا تَقتضي عِقابًا مُضاعَفًا

إن قيل: ما معنى تضعيفِ العذابِ، وقد قال في موضعٍ آخرَ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: 160]؟

فالجوابُ من وجهين: أحدُهما: أنَّ مضاعفةَ العذاب بمضاعفةِ الجُرم.

والآخرُ: أنَّ الآية في رؤساءِ أهلِ الشّرك، وتضعيفُ العذابِ عليهم بتضليلِ الأتباعِ ودُعائِهم إيَّاهم إلى شركِهم[2].

تنوّعُ الموقعِ الإعرابيِّ في ﴿يُضَٰعَفُ﴾ ودَلالتُه:

مُضاعفةُ العذاب حكمٌ ثابتٌ، وحالٌ مُستمرٌّ

قولُه تعالى: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ خبرٌ عن اسْم الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، ويجوزُ أن تكونَ جملةُ ﴿لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ خبرًا أوَّلَ، وجملةُ ﴿يُضَٰعَفُ﴾ خبرًا ثانيًا، ويجوزُ أن تكونَ جملةُ ﴿لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ﴾ حالًا وجملةُ ﴿يُضَٰعَفُ﴾ خبرًا أوَّلَ[3]، ودَلالةُ الخبرِ حُكمٌ للمسندِ إليه، ودَلالةُ الحال قيْدٌ لحالِهم في العذاب.

معنى ﴿مَا﴾ ودَلالتُها في قوله: ﴿مَا كَانُواْ﴾:

الكافرون لا يستطيعون سماعَ الحقِّ ولا رُؤيتَه

في قوله تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ﴾ يجوزُ في ﴿مَا﴾ هذه ثلاثةُ أوجُه:

أحدُها: أن تكونَ نافيةً، نفى عنهمُ السَّمعَ والبصرَ لَمَّا لم يَنتفعوا بهما وإن كانوا ذَوي أسماعٍ وأبصارٍ، أو يكونُ متعلَّقُ السَّمع والبصرِ شيئًا خاصًّا.

والثَّاني: أن تكونَ مصدريَّةً، وفيها حينئذٍ تأويلان:

أحدُهما: أنَّها قائمةٌ مقامَ الظَّرف؛ أي: مدَّةَ استطاعتِهم ذلك،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/36.
(2) السمعاني، تفسير القرآن: 2/421.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/36.

وتكونُ ﴿مَا﴾ منصوبةً بـ ﴿يُضَٰعَفُ﴾؛ أي: يضاعَفُ لهمُ العذابُ مدَّةَ استطاعتِهم السَّمعَ والإبصارَ؛ أي: أبدًا، كقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [هود: 107]؛ أي: مدَّةَ دوامِ السَّماوات والأرض؛ أي: أبدًا.

الثَّاني: أنَّها منصوبةُ المحلِّ على إسقاط حرفِ الجرِّ، كما يُحذف من أنْ وأنَّ أختيها، وإليه ذهب الفرَّاءُ، وذلك الجارُّ المقدَّرُ متعلِّقٌ أيضًا بـ ﴿يُضَٰعَفُ﴾؛ أي: يضاعفُ لهم بسبب كونِهم كانوا يَسمعون ويُبصرون ولا يَنتفعون.

الثَّالث من أوجُه ﴿مَا﴾: أن تكون بمعنى الذي، وتكونُ على حذْفِ حرفِ الجرِّ أيضًا، أي: بسببِ الذي كانوا، وفيه بُعدٌ؛ لأنَّ حذْفَ الحرفِ مع (ما) الموصولة لا يطَّردُ، والجملةُ من قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفُ﴾ مستأنَفةٌ[1].

تنوّعُ الموقعِ الإعرابيِّ ودَلالتُه في ﴿مَا كَانُواْ﴾:

يجوزُ أن يكونَ قولُه تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾ خبرًا عنِ اسْمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أو حالًا منه، فتكونُ استطاعةُ السَّمعِ المَنفيَّةُ عنهم مُستعارةً لكراهيتِهم سماعَ القرآن وأقوالِ النَّبيِّ ﷺ. ويجوزُ أن تكونَ الجملةُ حالًا لـ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾، وسوَّغَ كونَها حالًا منَ النَّكرةِ أنَّ النَّكرةَ وقعتْ في سياقِ النَّفْيِ، والمعنى: أنَّهم جعَلوها آلهةً لهم في حالِ أنَّها لا تستطيعُ السَّمعَ ولا الإبصارَ! وإعادةُ ضميرِ جمْعِ العقلاءِ على الأصنامِ على هذا الوجْهِ منظورٌ فيه إلى أنَّ المشركين اعتقَدوها تعقِلُ، ففي هذا الإضمارِ مع نفْيِ السَّمعِ والبصرِ عنها ضربٌ منَ التَّهكُّمِ بهم[2].

أهلُ الصَّممِ والعَمى لا يَصلُحون للولايةِ

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/302، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/137، والزحيلي، التفسير المنير: 12/44.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/36.

سِرُّ التَّعليلِ بجُملةِ: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ﴾:

فُصِل قولُه تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾ عن سابقِه لِما بينَهما من شِبْه كمالِ الاتِّصال، إذ قد ينشأُ سؤالٌ عن قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ مُفادُه: ما علَّةُ مضاعفةِ العذابِ لهم؟ وما الذي جعلَهم يَستحقُّون هذا الوعيدَ الشَّديدَ؟ فتكونُ الإجابةُ: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾، فلأجلِ أنَّهم أصَمّوا آذانَهم عن سماعِ الحقِّ، وكرِهوه أشدَّ الكراهةِ، واستثْقَلوا سماعَه أعظَمَ الاستثقالِ، وتعامَوْا عن آياتِ الملكِ المتعالِ[1]، وكان هذا منهم إصرارًا على الكفرِ والصَّدِّ عن سبيلِ اللهِ - لأجلِ هذا كلِّه - ضوعِفَ عذابُهم، فلم يُجْزَوا إلَّا بما عملوا، فكان جزاءً وِفاقًا، وليس المرادُ نفْيَ السَّمعِ والبصرِ، بلِ المقصودُ أنَّهم - وإن كانوا يَسمعون ويُبصرون في الظَّاهر - ما استَخْدَموا هاتين الحاسَّتَيْن استخدامًا صحيحًا في تلقِّي المعارفِ والمعلوماتِ وتكوين العقيدةِ السَّليمةِ، ونظرًا لعنادِهم وعُتوِّهم وكراهتِهم الحقَّ والهُدى، ما كانوا يُطيقون سمْعَ آياتِ القرآنِ والتَّبصُّرَ بآياتِ الكونِ[2].

ليستِ العِبرةُ بوجودِ الآلةِ وإنّما العِبرةُ بحسْنِ استثْمارِها

الغرَضُ منَ التَّشبيهِ التَّمثيلِّي في ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ﴾:

البديهةُ دلَّت على أنَّهم كانوا يَسمعون الأصواتَ والحروفَ، فوجبَ حمْلُ اللَّفظِ على الثَّاني[3]، فليس المرادُ أنَّهم صُمٌّ حقيقةً، بل شُبِّهت حالُهم بحالِ الأصمِّ الذي لا يستطيعُ السَّمعَ؛ ذلك لأنَّهم لا يَتدبَّرون ما يَسمعون من دعوةٍ إلى الحقِّ وآياتٍ تُتلى وفيها الإعجازُ، فكانوا كأنَّهم لا يَسمعون[4] فقد شُبِّه حالُهم في إعراضِهم عنِ الحقِّ وبُغضِهم له واستثْقالِهم سماعَه لداءِ الكِبْرِ في نفوسِهم بحالِ مَن

مثلُ الكافرِ كمثلِ الأصمِّ الأعمَى؛ لا تنفعُه أُذناهُ ولا تَهديه عيناهُ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/232.
(2) الزحيلي، التفسير المنير: 12/47 - 48.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/333.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3693.

لا يستطيعُ أن يَسمعَ الأصواتَ لداءٍ في أذنِه بجامعِ عدمِ الانتفاعِ بالمسموعِ في كلٍّ. وكذلك شُبِّه حالُهم في تعاميهِم عن رؤيةِ الدَّلائلِ الباهرةِ والحُججِ السَّافرةِ بحال مَن لا يُبصرُ لداءٍ في عينَيْه بجامعِ عدمِ الانتفاعِ في كلٍّ، فهو تشبيهٌ لهم بالأعمَى والأصمِّ، ولمَّا كان وجهُ الشَّبه مُنتزَعًا من عدَّة أمورٍ كان تمثيليًّا؛ لأنَّه تشبيهُ مركَّبٍ بمركَّبٍ[1]، وقيل: في الكلام استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، ولا مانعَ من اعتبارِ الاستعارةِ التّمثيليَّةِ بدلَها[2]؛ لأنَّ نفْيَ استطاعةِ السَّمع والبصرِ مع سلامةِ الحواسِّ هو استعمالٌ معروفٌ للخاصَّة والعامَّة، يقولون: لا أُطيقُ النَّظرَ إلى فلانٍ ولا أستطيعُ أن أسمعَ كلامَه مِن بُغضِه ونفرتِه عنه[3]، وكذا قول القائل: العاشقُ لا يستطيعُ أن يسمعَ كلامَ العاذلِ[4].

بَلاغةُ الكنايةِ في الآية:

أهـــلُ الـكـفـرِ يَـكـرهـون الحـقَّ ويُعرِضون عنه

في قولِه تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ كنايةٌ عن عدمِ قَبولِهم للحقِّ، وأنَّ شدَّةَ إعراضِهم عنه وصلت إلى حدٍّ صارت فيه تُوصَفُ بعدمِ الاستطاعةِ؛ كما يقول الإنسانُ لِما تشتدُّ كراهتُه له: هذا ممّا لا أستطيعُ أن أسمعَه[5]، وبلاغةُ الكنايةِ تتأتَّى من كونِها تأتي بالمعنى المُرادِ التَّعبيرُ عنه مصحوبًا بالدَّليلِ عليه في إيجازٍ.

نُكتةُ البدْءِ بنفْيِ السَّمعِ ثمَّ نفْيِ البَصرِ:

السّمعُ مُقدَّمٌ على البصرِ

قُدِّمَ السَّمعُ في هذه الآية على البصر؛ لأنَّ حاسَّتَه أشرفُ من حاسَّةِ البصرِ، إذ عليه تُبنى في الأطفالِ معرفةُ دلالاتِ الأسماءِ، وهو كافٍ في أكثرِ المعقولاتِ دونَ البصر، إلى غير ذلك من

(1) درويش، إعراب القرآن: 4/331.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/232.
(3) ابن القيم، مفتاح دار السعادة: 1/280.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/232.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 9/258.

أسباب التقديم[1]، ويدلُّ التّقديمُ على أهميَّة السَّمعِ على البصرِ، قال اللّه سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ [النحل: 78][2].

دَلالةُ نفْيِ الاستطاعةِ في السَّمع:

في قولِه تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾ خُصِّص السَّمعُ بنفيِ الاستطاعةِ فيه دونَ البصر؛ لأنَّ نفْيَ الاستطاعةِ أعرقُ في العيْبِ، وأدلُّ على النَّقصِ، وأنكأُ من نفيِ السَّمع؛ لأنَّهم قد يحملونَه على الإجابة، وأمَّا نفيُ البصر فغير مُنفكٍّ عنِ النَّقص سواءٌ كان للعين أو للقلب[3]؛ لذا بولِغ في نفيِ الأوَّل عنهم واكتُفِي في الثَّاني بنفيِ الإبصار[4]، فعبِّر مع السَّمع بنفيِ الاستطاعة، ولم يقل هنا: وما كانوا يستطيعون أن يُبصِروا؛ لأنَّهم كانوا يبصرونَها، ولكنَّ مجرَّدَ الإبصار غيرُ كافٍ في حصول الاستدلالِ حتى يُضمَّ إليه عملُ الفكر بخلاف السَّمعِ في قولِه: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾[5].

ليس حجْبُ السَّمع كحجْبِ البصرِ

بَلاغةُ عطْفِ في الآية:

قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾، وقد حسُنَ الوصلُ لِما بين الجُملتَيْن منَ المناسبةِ، واتِّفاقِهما في الخبريَّة، ولأنَّه قد قُصد تشريكُ الثَّانية مع الأُولى في الحُكمِ الإعرابيِّ؛ فجملةُ: ﴿وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾ لا محلَّ لها منَ الإعراب؛ لأنَّها معطوفةٌ على جملةِ ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾ وهي جملةٌ تعليليَّةٌ[6]، وهذا العطفُ أفادَ تعديدَ الصِّفاتِ الخبيثةِ

تنوّعت أسبابُ ضَلالِ الكافرين وصُوَرُ إعراضِهم عنِ الحقِّ والرّشادِ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/161.
(2) الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 5/184.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/258.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/197، والآلوسي، روح المعاني: 6/232.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/37.
(6) محمود صافي، الجدول: 6/243.

المَقيتةِ التي اتَّصفَ بها هؤلاء الكافرون الصّادّون عن سبيل اللّه، والتي استحَقّوا بها مضاعفةَ العذابِ لهم.

معنى ﴿وَمَا﴾ في ﴿وَمَا كَانُواْ﴾ ودَلالتُها:

تأكيدُ نفْيِ سماعِ الكافرين وإبْصارِهم

﴿وَمَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾ هي نافيةٌ[1]، ولمَّا كانت (ما) أبلغَ في الدِّلالةِ على النَّفي من (لم) من حيث كوْنُها تأتي ردًّا على زعْمٍ خاطئٍ يَسبقُها؛ دلَّ مجيئُها في هذا السِّياقِ على المبالغةِ في النَّفي، مع تضمُّنِها الردَّ على مَن يقول منَ المشركين: بل سمِعْنا وأبصرْنا ولم نجدْ في هذا حُجّةً لكي نؤمنَ!

دَلالةُ المضارعِ ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ و﴿يُبْصِرُونَ﴾:

تكرُّرُ صمِّ الكافرين وعَماهُم عن آياتِ ربِّهم، واستمرارُ هذه الحالِ

عُبِّر بالمضارع في قولِه تعالى: ﴿يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾، و﴿يُبْصِرُونَ﴾ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ في الماضي، وذلك هو المفهومُ من سبْقِ الفعلَيْن ﴿يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾، و﴿يُبْصِرُونَ﴾ بالفعل الماضي ﴿كَانُواْ﴾ والمفهومُ منَ النَّفي بـ ﴿مَا﴾، وما تُضْفيه دلالةُ المضارع على السِّياقِ أنَّ دواعيَ السَّمع والإبصارِ قد توالت عليهم وتكرَّرتْ لهم، من آياتٍ تُتلَى، وآياتٍ تُرَى، ومع هذا لم يحصلْ منهم مجرَّدُ السَّماعِ ولا الإبصارِ، فضلًا عنِ التَّدبُّرِ والاعتبارِ.

لطيفةُ الإتيانِ بأفعالِ الكوْنِ:

تحقُّقُ عدَمِ سماعِهم وإبصارِهم في الماضي والمستقبل

أُوثر الإتيانُ بأفعال الكوْنِ في هذه الجمل من الآية الكريمة أربعَ مرَّات ابتداءً بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ﴾ إلى حتى قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾ لإفادةِ ما يدلُّ عليه فعلُ الكونِ من تمكُّنِ الحدثِ المُخبَرِ به، فقولُه: ﴿لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ﴾ آكدُ من: لا يعجزون، وكذلك أخواتُه[2]. والجمعُ بين الماضي والمستقبل في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾ للدِّلالةِ على استمرارِ غفلتِهم عنِ الآيات

(1) بهجت صالح، الإعراب المفصل: 5/153.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/37.

وتجدُّدِها وقتًا بعدَ آخرَ، فكلمةُ ﴿كَانُواْ﴾ تدلُّ على الماضي، وكلمةُ ﴿يُبْصِرُونَ﴾ تدلُّ على المستقبل، وكذلك الأمرُ في قوله تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾[1]، وروعِيَ الاختلافُ بين صِيَغ أفعالِ الكون إذ جاء أوَّلُها بصيغةِ المضارع والثَّلاثةُ بعدَه بصيغة الماضي؛ لأنَّ المضارع المجزومَ بحرف (لم) له معنى المُضيِّ، فليس المخالفةُ منها إلا تفنُّنًا[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الولايةُ والنَّصرُ:

الواو واللّام والياء أصلٌ واحدٌ يدلُّ على القُرب[3]، وأصلُ الوَلْيِ جعلُ الثّاني بعد الأوّلِ من غيرِ فصْلٍ من قولهم: هذا يَلي ذاك وَليًا. ووليَ فلانٌ فلانًا: تبعَه من غير فصْلٍ[4]، وكلُّ مَن يَليك أو يُقاربُك فهو وَليٌّ[5].

والنّون والصّاد والرّاء أصلٌ واحدٌ يدلُّ على إتيان خيرٍ وإيتائِه[6]. ومعناه المحوريُّ: الإمدادُ بما فيه زيادةٌ مناسِبةٌ وقوَّةٌ، ومن مَلحظِ الإمدادِ بالزِّيادةِ والقوَّةِ جاء النّصرُ، والنُّصرةُ: الإعانةُ[7]. فالملحَظُ في لفظِ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ القُربُ، وفي لفظِ (ناصرين) الإمدادُ بالقوَّةِ والإعانةِ، وهؤلاء ما كان لهم من دونِ اللّه أولياءُ يَفعلون معهم ما يفعلُ القريبُ من تَولّي المصالحِ والحمايةِ منَ المصائبِ[8]؛ لذا أُوثر لفظُ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3693.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/37.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 284، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ولي).
(5) أبو البقاء الكفويّ، الكلّيّات، ص: 918.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل، والرّاغب، المفردات: (نصر).
(8) البقاعي، نظم الدرر: 9/257.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 20 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-17-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 20 : المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-17-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6073958 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»